المدخل

الى علم الحيوان

للاب أنستاس ماري الكرملي

١ — ﴿ تصدير ﴾ لما أخذ علماء اللغة بتدوين الالفاظ العربية ، كانت غايتهم تفسير ما ورد في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وما غمض من كلم الاقدمين في شعر الجاهلية ، وأما ما عدا ذلك فكان يُهمَل ، ويشار اليه اشارةً خاطفةً كقولهم : نبات ، حيوان ، طائر ، سمكة ، هامّة ، أو نظائر هذه الالفاظ التي لا تنفع ولا تضر

ثم لما ازداد العمران ، وتبحّر الناس في الحضارة ، أرادوا أن يتحققوا بعض الامور ، لتفهُّم ما يقوم عليها من الخير والضير ، والجَذْب والدفع ، كقولهم : نبات ينفع لكذا ، أو لطرد المرض الفلاني . — وهذا حيوان ، سامّ ، أو مؤذٍ ، أو ما شابه هذه الاشارات المفيدة بعض الفائدة ، أو كل الفائدة ، حتى كان عصر الرشيد والمأمون ، فاذا بالناطقين بالضاد يحاولون اللحاق بأبناء يونان ، ليقفوا على أسرار الطبيعة ، وما في زواياها من الخبايا ، واذا بهم سبقوهم في أمورٍ لا تحصى ، فكان لهم القِدح المعلى والسهم الاوفى

بقي شيءٌ لم يقدروه كل التقدير ، هو علم الحيوان ، فان السلف لم يدقّقوا النظر في ما كتبوهُ ، ولا في ما دوّنوه ، إذ أهملوه بعض الاهمال ، ولما انتبه نفرٌ منا الى دراسته رأوا أموراً شتى ، كان عليهم أن يعرفوها معرفة تامةً ، حتى لا يخبطوا فيها خبطَ عشواء ، وهو مما يؤسف له . وكنا قد نشرنا ، قبل نحو أكثر من ستّين سنة ، في إحدى المجلات أو احدى الصحف ، من غير أن نتذكر تذكراً جليًّا ، ملاحظات تفيد من يعنى بدرس علم الحيوان عند العرب . وقد سُرقت منا جميع الكتب والمجلات والجرائد التي كانت في خزانتنا ، وذلك في الحرب العظمى الاولى ، فلم يبق منها ورقة في ٧ أذار (مارس) ١٩١٧ وقد وقف عليها في وقتها كثيرون ، فاستفاد منها جماعة . وأما أغلب الناس ، فلم ينتفعوا بها البتّة . وها نحن أولا . ندوّن الآن ما يخطر لنا منها ، لأن الرغبة في إتقان هذا العلم ، اشتدت في معاصرينا ، في هذا العهد ومن ثمَّ ، فان أرادوا أن يأمنوا العثار ، فعليهم أن يسلكوا الجدد ، وهم

لا يوفقون إلاّ بعد معرفة ما يوصلهم اليه، ولا يوصلهم اليه إلاّ الوقوف على هذه الملاحظات التي هي نتاج دروس سنين عديدة

٢ — في الملاحظة الاولى معنى الذكر والانثى في قول اللغويين : هذا الحيوان هو الضخم ، او الكبير من الحيوان الفلاني ، وهذا الحيوان هو الصغير من الحيوان الفلاني ، وهذا ذكر الحيوان الفلاني ، وهذه أنثى الحيوان الفلاني ، لا يراد بالضخامة والكبر والعظم ما تفيده كل لفظة من هذه الالفاظ ، ولا الذكورة ولا الانوثة ، نعم قد يكون ذلك بمعناها المألوف وقد يراد بها أيضاً ضرب من الحيوان فيه شبه من الحيوان الآخر. فقد ورد (الذكر) بمعنى الضخم لا غير ، وان كان أنثى ، وقد وردت (الأنثى) بمعنى الصغير من الحيوان وان كان ذكراً ، لكن كل ذلك ليس من المستعمل في كل حين ولا في كل عبارة ، انما قد يرد هذا الاستعمال بعض الاحيان فيجب أن ينتبه له القارىء

و (الذكر) في علم النبات معناهُ الصلب منهُ . فقد قالوا مثلاً ، : الجُمَّيْز : التين الذكر ، مع ان الواحد غير الآخر ، وان كانا من فصيلةٍ واحدةٍ ، إذ لكل منهما ثمر خاصّ به ؛ لكن خشب الجُمَّيز أصلب ، وأقوى ، وأبقى من خشب التين ، ولهذا قيل انهُ التين الذكر — وقالوا الأرزُ : ذكر الصنوبر ، مع انهما شجران يختلف أحدهما عن أخيه ويختلف ثمر الواحد عن ثمر الآخر ، انما الذي دفعهم الى القول بالذكورة هو صلابته لا غير ، لا بل رأوا الذكورة والانوثة في الحديد ، وسائر المعادن فاذا كان الحديد صُلباً سَمّوه (ذكراً) وإلاّ فهو (أنيث) في نظرهم . ويقال : (ذكور البقول) ما غلظ منها وكان ضاراً الى المرارة ، لكنهم لا يقولون اناث البقول ، بل (أحْرارها) : وهي ما كان بعكسها

والعجب كل العجب : انهم قالوا ذكراً ما هو أنثى ، وقالوا أنثى ما هو ذكر . وأبناء العرب لم يَهتموا لهذا الوهم . فقد قال الجاحظ إن اليعسوب أمير النحل ، وذكرها ، والرئيس الكبير لها ، كالعسوب ، مع ان ليس للنحل أمير ، بل أميرة ، لكنها لما كانت ضخمة ، والضخم عندهم يسمّى (ذكراً) ، قالوا . هو أمير النحل . والقوم يظنّ العوام في جميع البلاد العربية لسان ، ان ذا الجُمَّيز من الزنابير هو الذكر . مع ان الحقيقة ان الانثى هي ذات الحمّة . وليس للذكر حمة [1] أي إبرة

و (الذكر) من الطيب : ما لا يتلوّن الثياب عند استعماله ، مثل المسك ، والعود ، والعنبر ، والكافور ، والزعفران الطيبة الافرنجية العصرية ، التي لا تتلوّن الثياب. وأما الزعفران

---

(١) ان الزنبور الذي لا حمة له انثى الذكر ، ربما وزان سكير ، وهو يبيض الحراق بعضو يكون له او رجله خيطا ويلصق به . لانهم يسمون ما يبيضه أنثى بعد تفقيسه ، وما أكثر الذين يسمون الحشرات الابر لجهلهم انها ذات الحمة

من الطيب فهو الذي يلوّن الثياب كالخلوق : والزعفران وكل ما يُستعمل فيها أثراً للوَرْس [٢]

٣ — ﴿ الملاحظة الثانية : لفظة واحدة لعدة حيوانات ﴾ قد تأتي الكلمة الواحدة دالة على عدة حيوانات ، فلا يحسن بالاديب ان يحصر معناها بحيوان دون حيوان آخر ، فهذا سوء تصرف في اللغة ، وتحكم فيها ، والكل يقضون عليك بأنك تتعدى حدود الحقوق وتجحف بها ، لأن هذا الاختلاف في المعنى ناشيء من اختلاف القبائل ، ولغاتها ، أو من اختلاف الربوع التي نزلوها ، فقد تعني الكلمة الفلانية كذا ولا تعني هذا المعنى في البلد الآخر

(فالمرجان) مثلاً يعني في العراق كله ، وخليج فارس ، هذه الحصوات او الخرزات الحمر التي تنبت في البحر ، ويسميها بعضهم (البُسَّذ) [٣] . وكان معناها عند الاقدمين ، صغار اللؤلؤ أو اللؤلؤ عامة ، وهي شديدة البياض ، وليس فيها أثر للحمرة ، وقد نقلها الازهري في تهذيبه بهذا المعنى ، وابو منصور امام أئمة اللغويين ، وهي بهذا المعنى تعريب اليونانية margfarites. واما (المرجان) عند المصريين فمعناه ضرب من السمك يكثر في بحر الروم ، وهو بهذا المعنى تعريب اليونانية pagros بعض قلب وابدال ، كما لا يخفى

فهل يجوز ان يقال بعد هذا : لا يعني (المرجان) إلاّ البُسَّذ ، أو (المرجان) هو اللؤلؤ لا البُسَّذ ، ولا ضرب من السمك ، أو (المرجان) ضرب من السمك لا غير ، فهذه كلها جنايات على اللغة وعلى المتكلمين بها ، وعلى اهل البلاد المختلفة . زد على ذلك ان تحكمه هذا لا يغير امراً من الناطقين بها ولا شيئاً من معانيها

والعربية كثيرة الالفاظ الدالّ واحدها على حيوانات مختلفة . ونحن نذكر بعض الامثلة منها :

(المُعيل) الاسد ، والنمر ، والذئب ، لانهُ يعيل صيداً اي يلتمس

(العيلم) : (بالعين المهملة) الضفدع ، والضبع الذكر . (الغيلم) : (بالغين المعجمة) الضفدع والسلحفاة الذكر . (العلجوم) : الضفدع الذكر ، والقرّاد ، والظبي الآدم ، والظليم والكبش ، والوعل ، والثور المسنّ ، والعظاءة الذكر ، وطائر أبيض ، والشديد من الابل ، أو خيارها

(المجرس) : القرد ، والثعلب ، او ولده ، واللئيم ، والدب ، وكل ما يعسعسُ بالليل مما كان دون الثعلب وفوق اليربوع (وهذا الاخير يدل على حيوانات كثيرة)

(الفرافر) : ولد النعجة والماعزة . والبقرة الوحشية ، أو هي الخرفان والحملان ، والذي يكسر كل شيء ، والغلام الشابّ والرجل الاخرق ، والفرس الذي يفرفر الاعجام في فيه ، والأسد الذي يفرفر قرنه . والشواهد من هذا القبيل لا تكاد تحصى لكثرتها

---

(٢) هذه الجوائز لا ترى في المعجمات فقط

(٣) اني لا أفهم كيف يؤلف معجم في الحيوان ولا يتعرض صاحبه لذكر (المرجان) بمعنى البسذ ، أو بمعنى الخرز ، هي ما في كتب متون اللغة . ولا يذكر في ديوانه (اللغة) ويذكر (الدبة)

﴿ ٤ — الملاحظة الثالثة : اقتباس العرب الفاظاً من الاعاجم ﴾ قد يستعير العرب الفاظاً من الاعاجم بمعناها ومبناها معاً ، وقد يستعيرونها بمبناها دون معناها ، وقد يستعيرونها بمعناها دون مبناها ، وقد يستعيرونها للفهم ويتصرفون فيها كل التصرف ، من زيادة وحذف ، من قلب وابدال ، من تصحيف وتحريف ، حتى ليتعذَّر على الباحث معرفة الاصل المأخوذة منهُ ، وعندنا على اثبات ذلك من الشواهد ما يقع في مجلد ضخم ، ولا بد لنا من ذكر شاهد واحد على كل ما أشرنا اليه . فمثال الاول الفستق والقاز والجندبادستر — ومثال الثاني : الهماي والزرجون والجريال — ومثال الثالث : الفاعوسة (بمعنى النار) والآنية (بمعنى الماء) والفاز (بمعنى الزيت المطبوخ) — ومثال الرابع : السيدلي والشفارج والنفشا والادرة والقَبيلة والبيرشمت والسيار ، — ومئات من الالفاظ لا تحصى ولا تحصر

﴿ ٥ — الملاحظة الرابعة : قد يُعرَّب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفة له ﴾ قد يعرب لفظ مع وجود ألفاظ مترادفات له من دخيلة ، ومعربة وعربية . فالعرب عرفت البلح ومن اسمائه عندهم البُسْرُ ، والمكلفة ، والسَّتل ، وكاسر العظام ، ومع ذلك قالوا : الهُمَّا والهُمَّاي والطهايون والفيتة ، والثلاثة الاولى من الفارسية والرابعة من اليونانية — وقالوا الخزار وعندهم العندليب ، والعندليل ، والمُزَّقة ، والمسهر ، وابو هرون . — وقالوا : الخشقاء وقد ذكرها الثعالبي في كتابه اللطائف ، مع ان السلف كانوا قد سموه الى اتخاذ اليَعْمَر ، بياء مثناة تحتية مفتوحة يليها عين معجمة ساكنة فراء ، وصحفوها (يعر) و(يعروا) و (يغروا)[٤١] ولم يكتفوا بذلك . فتفننوا في تصحيفها فقالوا : خشْقاو ، وخشقاء ، وحشقاو ، وفطاس ، وقوتاس ، وقوتاش ، وقوطاس وقوطاش ، الى ما لا يحصى ذكره . وقالوا فيه ايضاً تَوْر العُزّ ، وجامرس العُزّ . فيجب طَرْح المصحَّف ونبذه نبذ النواة ، وحفظ غير المصحَّف ، اي حفظ الرواية الصحيحة ، وان كثرت المتفرعات ، أي انهُ يؤخذ يَعْمَر وخشقاء وقُطاس ويهمل ما بقي من تلك المصحفات . لان ما صحَّ من الكلام كثيره ، ولغات أهالي بعض البلاد والقبائل يختلف بعضها عن بعض ، ويجب ان تراعى حقوقهم . اما سبب كثرة المعرَّب ، فلانَّ

---

٤١ جاء في احد المعاجم الافرنجية العربية في علم الحيوان ان اليعر (أو اليمر) الوارد في قصيدي ما هي إلا تصحيف (يعفر) وهي كلمة فارسية تعني الوبر أو الغريرة ، وزاد صاحبه على ذلك قائلاً : « أو من حظي بالمعاجم الاولى التي أخذ عن العرب » . ثم ذكر الاستاذ سعيد الخوري بعض الكلمة الانكليزية (Yak) . وليس هناك وجه لنشر هذه الحاشة في هذه المقتطف ، التي تصدر في مصر (١٩٠٠ : ٢٤٥) ان اليعر (بلغة النجدة) وصحفت (في بعض اللغة) هو الجمل الذي يسمى بالك وهو القرطاس والقاقم والقرطاس وخطأ (كما ورد في تحقيق ابن بري) يقطا اليعر . وقد جاءت اليعر مصحفة في كتاب المؤنسة والامتاع (١ : ١٤٤) محرفة (يعروا) وهي لم ترد في كتب عربي

الواحد منهم يجهل ما وضعهُ من تقدمه ، او يجهل الفاظ الناطقين بالضاد . أو أنه غير واقف على ما عرفه الاسبقون في الموضوع الذي يعالجه ، الى غير ذلك من الاسباب التي قد تخفى علينا الآن ، لأننا أصبحنا في بيئة غير بيئة من جاء قبلنا

٦ — ﴿ الملاحظة الخامسة : يجب ان يكون تأويل المعرّب مجرداً من الهوى ﴾ كثيراً ما يسوق الهوى صاحبه سوقاً بلا هدًى ، فلا تكن من أهل الغرض ، لئلا تعمى وتصم . فقد ذكر لي أحد محبي الفرس ان الجريال فارسية ، مركبة من كلمتين ، من (جر) وأصلها (زر) أي ذهب . و(آل) أي لون . فيكون معناها ما كان لونه لون الذهب . وهذا شرحها العرب بقولهم : « الجريال بالكسر : صبغ أحمر ، وحمرة الذهب ، وسُلافة العُصْفُر وما خَلُصَ من لون أحمر وغيره ، والخَمْرُ أو لونها ، كالجريالة فيهما (القاموس) — على ان الجريال من أصل يوناني هو korallion وهو المرجان ، أو البسذ ، يكون معناه : كل ذي لون أحمر كالمرجان ، فيصح على الجامد والسائل

أما المأخوذ من الفارسية وهو بهذا المعنى أو يكاد ، فهو الزَرْجُون فقد جاء في القاموس شرحاً لها : « الزرجون : محركة : الخمر ، والكرم ، أو قضبانها ، وصبغ احمر » والكلمة منحوتة من (زر) الفارسية بمعنى ذهب . و(گون) أي لون . فيكون معناها ماكان لونه لون الذهب ، فيصدق على الخمر والصبغ الاحمر

٧ — ﴿ الملاحظة السادسة : قد يبين أصل الكلمة فروق الحيوان ﴾ يظن بعضهم ان لا فائدة من درس أصل الالفاظ الدالة على الحيوان . وهذا وهمٌ كبير ، لان درس أصل الكلم يهدينا الى ان هذه الترادفات هي غير مترادفة في الحقيقة فالشفنين ، والترغل ، والترنور والقمري ، والنواح ، والناخة ، وساق حرّ ، والعُطُسُن ، والأمن ، هي كلها حمام ، الا ان الواحدة ، تختلف عن اختها ، بالنظر الى الأصل المأخوذة منهُ

(فالشفنين) كلمة مصرية الأصل من (شفن : وقد وجدت مكتوبة بجانب صورة الشفنين) الذي معناه اليمام ، أو لنوع منه صغير الحجم ، وكثيراً ما يقيم فوق المخل في دير النيل ، والشُفْشُنين بضم الشين ، وكذا يلفظه أهل بغداد . وكذا ضبطه صاحب التاج في مستدرك شفن ، فهو بخلاف ما جاء في بعض الكتب كمحيط المحيط ومن نقل عنه . فقد ضبطت فيها بالكسر وهو غلط . قال ابن البيطار هو المسمى باليونانية [illegible]

و (الترغل) بضم التاء واسكان الراء وضم الغين وشد اللام ، ويقال (الدرغل) بالدال في مكان التاء ، و (الطرغُل) ايضاً أي بطاء في الأول و (الأطْرُغُل) . أي بضم الهمزة واسكان الطاء ، وضم الراء والغين ، وفي الآخر لام مشددة ، ولم يذكر منها القاموس والتاج

الآ الأخيرة نقالا : « بعد الضبط الذكور الاطرغلات : الدباسي والقهري والصلاصل ذوات الأطواق. قال الأزهري : ولا أدري أمعرّب أم عربي » اه . فنا هي تعريب اليونانية trugôn التي مرّ ذكرها وكان يجب ان تختم بالنون فختمت باللام. ومثل هذا الابدال كثير في المعرّب

و. الترتور كلة لاتينية تعريب turtur ومعناها الفاختة ، او النوّاح

وأمر (القمري) فمنسوب الى جزيرة من جُزُر القمر ، والواحدة قمرية . قال ذلك شيخ الربوة في ص ١٦١ من كتابه نخبة الدهر ، وهذه عبارته معدداً جزُر القمر : « وقمرية ، والبها ينسب الطير القُمْريّ ، وهو نوع من الحام »

قلنا : والقمري يمتاز عن سائر المطوّقات بأنهُ يهدر ليل نهار بخلاف سائر الانواع جميعها

(والنوّاح) كشدّاد هي الكلمة العربية الصحيحة الوضع ، فهو ينوح ويطرب لغناء نفسه على ما قالوا ومن اسمائه العربية الوضع : (ساق حُرّ) قال ابوحاتم في كتاب الطير، عقيب ذكر القمريّ : إنه يضحك كما يضحك الإنسان وساق حرّ كالقمريّ يضحك ايضاً ، وسمي بصياحه « ساق حرّ » (عن تاج العروس) وقال في المخصص (٨ : ١٥٣) : « لا تأنيث له ولا جمع » — ونزيد على ما تقدم ان الذي يضحك هو الانثى ، ولهذا سمي بلسان العلماء turturisonus اي الترتور الضُحَكة لكثرة قهقهته وضحكه والترتور يقع عندهم على الذكر والأنثى . إذن ليس كل ترتور ، أو لا كل فاختة تسمى بلسان العلم «الترتور الضحكة » بل القمري فقط ، دون سائر المطوقات . فليحفظ وليقيّد

والفاختة عندنا من اليونانية الاتيكية phatta بهذا المعنى عينه . وقد أقام اليونان السلوقيون في العراق مدة ١١٧ سنة وأبقوا شيئاً من علومهم ، وآدابهم ، ولغتهم . وهذه الكلمة تُرى في العراق منذ عصر اليونانيين المذكورين الى يومنا هذا ، فهي اذن من أقدم الالفاظ في هذه الديار . وهي خاصة بالعراق ، ومعروفة فيه ، دون سائر البلاد العربية اللسان

ومن أسماء الفاختة : (الصُلْصُل) وهي تعريب تُرْتُر turtur اللاتينية ، فعربت بصورتين ، صورة اصلية ، وهي (تُرْتُور) وصورة على لثغة جعل التاء صاداً اي (صُلْصُل) قال في الأزهر (١ : ٢٧٠) (طبع بولاق) : جعل الصاد تاء لُثغة عند العرب ، من ذلك : قَصٌّ ورق الشجر وقَحَّ إذا تناثر وعلى ذلك نقل العربيون كلة صور الى تور (؟) من هذه فبقية القديمة

ومن انواع الحمام : الآن بهمزة مضمومة ، فنونين والاولى منهما مفتوحة . وهو كالحمام إلا انهُ أسود له طوق كطَرَق الدُبْسي ، احمر الرجلين والمنقار . صوته أنين : اوه : اوه . (تاج العروس) ولنضف سمات أخر . ونكتفينا بالاشارة الى اشهرها في الكتب . خوفاً من احداث ملل في النفوس .

(البحث تتمة)